{إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللهِ وَ ٱلْفَتْحُ}(1)

{إذا جاء نصر الله} أي إعانته تعالى و إظهاره إياك على أعدائك فان قلت لا شك أن ما وقع من الفتوح كان بنصرة المؤمنين فما وجه إضافتها إلى الله قلت لأن أفعالهم مستندة إلى دواعي قلوبهم و هي أمور حادثة لا بد لها من محدث و هو الله تعالى فالعبد هو المبدأ الأقرب و الله هو المبدأ الأول و الخالق للدواعي ما يبتنى عليها من الأفعال و العامل في إذا هو سبح أي فسبح إذا جاء نصر الله و لا يمنع الفاء عن العمل على قول الأكثرين أو فعل الشرط و ليس إذا مضافا إليه على مذهب المحققين و إذا لما يستقبل و الإعلام بذلك قيل كونه من إعلام النبوة لما روى أن السورة نزلت قبل فتح مكة كما عليه الأكثر {و الفتح} أي فتح مكة على أن الإضافة و اللام للعهد و هو الفتح الذي تطمح إليه الأبصار و لذلك سمى فتوح الفتوح و وقع الوعد به في أول سورة الفتح و قد سبقت قصة الفتح في تلك السورة و قيل جنس نصر الله مطلق الفتح على أن الإضافة و اللام للاستغراق فان فتح مكة لما كان مفتاح الفتوح و مناطها كما أن نفسها أم القرى و إمامها جعل مجيئه بمنزلة مجيئ سائر الفتوح و علق به أمره عليه السلام و إنهما على جناح الوصول إليه عن قريب و يمكن أن يقال التعبير للأشارة إلى حصول نصر الله بمجيئ جند بهم النصر و قيل نزلت السورة في أيام التشريق بمنى في حجة الوداع و عاش عليه السلام بعدها ثمانين يوما أو نحوها فكلمة إذا حينئذ باعتبار أن بعض ما في حيزها أعنى رؤيته دخول الناس الخ غير منقض بعد و قال سعدي المفتى و على هذه الرواية فكلمة إذا تكون خارجة عن معنى الاستقبال

فإنها قد تخوج عنه كما قيل في قوله تعالى و إذا رأوا تجارة الآية و في المصطلحات أن الفتوح كل ما يفتح على العبد من الله تعالى بعد ما كان مغلقا عليه من النعم الظاهرة و الباطنة كالأرزاق و العبادات و العلوم و المعارف و المكاشفات و غير ذلك و الفتح القريب هو ما انفتح على العبد من مقام القلب و ظهور صفاته و كمالاته عند قطع منازل النفس و هو المشار إليه بقوله نصر من الله و فتح قريب و الفتح المبين هو ما يفتح على العبد من مقام الولاية و تجليات أنوار الأسماء الإلهية المفنية لصفات القلب و كمالاته المشار إليه بقوله إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك و ما تأخر يعنى من الصفات النفسانية و القلبية و الفتح المطلق هو أعلى الفتوحات و أكملها و هو ما انفتح على العبد من تجلا الذات الأحدية و الاستغراق في عين الجمع بفناء الرسوم الخلقية كلاه و هو المشار إليه بقوله إذا جاء نصر الله و الفتح انتهى و قد سبق بعبارة أخرى في سورة الفتح و على هذا فالمراد بالنصر هو المدد الملكوتي و التأييد القدسي بتجليات الأسماء و الصفات و بالفتح هو الفتح المطلق الذي لا فتح ورآءه و هو فتح باب الحضرة الإلهية الحدية و الكشف الذاتي و لا شك أن الفتح الأول هو فتح ملكوت الأفعال في مقام القلب بكشف حجاب حس النفس بإفناء أفعالها في أفعال الحق و الثاني هو فتح جبروت الصفات في مقام الروح بكشف حجاب خيالها فأبناء صفاتها في صفاته و الثالث هو فتح لاهوت الذات في مقام السر بكشف حجب و همها بإفناء ذاتها في ذاته و من حصل له هذا النصر و الفتح الباطني حصل له النصر و الفتح الظاهري أيضا لان النصر و الفتح من باب الرحمة و عند الوصول إلى نهاية النهايات لا يبقى من السخط أثر أصلا و يستوعب الظاهر و الباطن اثر الرحمة مطلقا و من ثمة تفاوت أحوال الكمل بداية و نهاية فظهر من هذا

أن كلا من النصر و الفتح في الآية ينبغي أن يحمل على ما هو المطلق لكنى اقتفيت اثر أهل التفسير في تقديم ما هو المقيد لكنه قول مرجوح تسامح الله عن قائله.

{وَ رَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللهِ أَفْوَاجاً}(2)

{ ورأيت الناس } أبصرتهم أو علمتهم يعنى العرب و اللام للعهد أو الاستغراق العرفي جعلوه خطابا للنبي عليه السلام يحتمل الخطاب العام لكل مؤمن و حينئذ يظهر جواب آخر عن أمر النبي عليه السلام بالاستغفار مع انه لا تقصير له إذ الخطاب لا يخصه فالأمر بالاستغفار لمن سواه و إدخاله في الأمر تغليب {يدخلون في دين الله} أي ملة الإسلام التي لا دين يضاف إليه تعالى غيرها و الجملة على تقدير الرؤية البصرية حال و على تقدير الؤية القلبية مفعول ثان و قال بعضهم و مما يحتلج في القلب أن المناسب لقوله يدخلون الخ أن يحمل قوله و الفتح على فتح باب الدين عليهم {أفواجا} حال من فاعل يدخلون أي يدخلون فيه جماعات كثرة كأهل مكة و الطائف و اليمن و هو لزن و سائر قبائل العرب و كانوا قبل ذلك يدخلون فيه واحدا واحدا و اثنين اثنين روى انه عليه السلام لما فتح مكة أقبلت العرب بعضها على بعض فقالوا إذا ظفر بأهل الحرم فلن يقاومه احد و قد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل من كل من أرادهم فكانوا يدخلون في دين الإسلام أفواجا من غير قتال (قال الكاشفي) درسال نزول اين سورة تتابع وفود بود جون بني أسد و بني مرة و بني كلب و بني كنانة بني هلال و غير ايشان ازا كنف و أطراف بخدمت آن حضرت آمده بشرف إسلام مشرف ميشدند. قال أبو عمر ابن عبد البر لم يمت رسول الله عليه السلام و في العرب رجل كافر بل دخل الكل و في الإسلام بعد حنين منهم من قدم و منهم من قدم وافده و قال ابن عطية و المراد و الله اعلم العرب عبدة

الأوثان و أما نصارى بني تغلب فما اسلموا في حياته عليه السلام و لكن أعطوا الجزية و في عين المعاني الناس أهل البحر قال عليه السلام " **الإيمان يماني و الحكمة يمانية** " و قال " **وجدت نفس ربكم من جانب اليمن** " أي تنفيسه من الكرب و عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه إني بكى ذات يوم فقيل له في ذلك فقال سمعت رسول الله عليه السلام يقول " **دخل الناس في دين الله أفواجا و سيخرجون منه أفواجا**"

{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَ ٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً}(3)

{فسبح بحمد ربك} التسبيح مجاز ن التعجب بعلاقة السببية فان من رأى أمر أعجبنا يقول سبحان الله قال ابن الشيخ لعل الوجه في إطلاق هذه الكلة عند التعجب كما ورد في الأذكار و لكل أعجوبة سبحانه الله هو أن الإنسان عند مشاهدة الأمر العجيب الخارج عن حد أمثاله يستبعد وقوعه و تنفعل نفسه منه كأنه استقصر قدرة الله فلذلك خطر على قلبه أن يقول من قدر عليه وأوجده ثم انه في هذا الزعم مخطئ فقال سبحان الله تنزيها لله عن العجز عن خلق أمر عجيب يستبعد وقوعه لتيقنه بأن الله على كل شيء قدير قال الإمام السهيلي رحمه الله سر اقتران الحمد بالتسبيح أبدا نحو سبح بحمد ربك و إن من شيء إلا يسبح بحمده أن معرفة الله تنقسم قسمين معرفة ذاته و معرفة أسمائه و صفاته و لا سبيل إلى إثبات احد القسمين دون الآخر و إثبات وجود الذات من مقتضى العقل و إثبات الأسماء و الصفات من مقتضى الشرع فبالعقل عرف المسمى و بالشرع عرفت الأسماء و لا يتصور في العقل إثبات الذات إلا مع نفى سمات الحدوث عنها و ذلك هو التسبيح و مقتضى العقل مقدم على مقتضى الشرع و إنما جاء الشرع المنقول بعد حصول النظر و العقول فنيه العقول على النظر فعرفت ثم علمها ما لم تكن تعلم من الأسماء فانضاف لها التسبيح و الحمد والثناء فما

أمر أن تسبيحه إلا بحمده انتهى و معنى الآية فقل سبحان الله حال كونك ملتبسا بحمده أي فتعجب لتيسير الله ما لم يخطر ببال أحد من أن يغلب احد على أهل حرمه المحترم واحمده على جميع صنعه هذا على الرواية الأول ظاهر و أما على الثانية فلعله أمر بأن يداوم على ذلك استعظاما لنعمته لا بإحداث التعجب لما ذكر فإنه إنما يناسب حالة الفتح و قال بعضهم و الأشبه أن يراد نزهه عن العجز في تأخير ظهور الفتح و احمده على التأخير وصفه بأن توقيت الأمور من عنده ليس إلا بحكم لا يعرفها إلا هو انتهى أو فاذكره مسبحا حامدا و زد في عبادته و الثناء عليه لزيادة إنعامه عليك أو فصل له حامدا على نعمه فالتسبيح مجاز عن الصلاة بعلاقة الجزئية لأنها تشتمل عليه في الأكثر روى انه عليه السلام لما فتح باب الكعبة صلى صلاة الضحى ثماني ركعات و حملها بعضهم على صلاة الشكر لا على صلاة الضحى و بعضهم على أن أربعا منها للشكر أربعا للضحى أو فنزهه عما يقول الظلمة حامدا له على أن صدق وعده أو فأثن على الله بصفات الجلال يعنى الصفات السلبية حامد له على صفات الإكرام يعنى الصفات الثبوتية أي على آثارها أو على تنزيلها منزلة الأوصاف الاختيارية لكفاية الذات المقدس في التصاف بها فان المحمود عليه يجب أن يكون أمرا اختياريا و قال القاشاني نزه ذاتك عن الاحتجات بمقام القلب الذي هو معدن النبوة بقطع علاقة البدن و الترقي إلى مقام حق اليقين الذي هو معدن الولاية حامدا له بإظهار كمالاته و أوصافه التامة عند التجريد بالحمد الفعلي {و استغفره} هضما لنفسك و استقصارا لعلمك و استعظاما لحقوق الله و استدراكا لما فرط منك من ترك الأولى أو استغفره لذنبك و للمؤمنين و هو المناسب لما في سورة محمد و تقديم التسبيح ثم الحمد على الاستغفار على طريق النزول من الخالق إلى الخلق حيث لم تشتغل على رؤية الناس باستغفارهم أولا مع أن رؤيتهم تستدعى ذلك بل اشتغل أولا

بتسبيح الله و حمده لأنه رأى الله قبل رؤية الناس كما قيل ما رأيت شيئًا إلا و رأيت الله قبله و ذلك لان الناس مرءآة العارف و صاحب المرءآة يتوجه أولا إلى المرئي و برؤية المرئي تلتفت نفسه إلى المرءآة و لك أن تقول أن في التقديم المذكر و تعليم أدب الدعاء و هو أن لا يسأل فجأة من غير تقديم الثناء على المسئول عنه عن عائشة رضي الله عنها انه كان عليه السلام يكثر قبل موته أن يقول سبحانك اللهم و بحمدك استغفرك و أتوب إليك و عنه عليه السلام إني لاستغفر الله في اليوم و الليلة مائة مرة و منه يعلم أن ورد الاستغفار لا يسقط أبدا لأنه لا يخلو الإنسان عن الغين و التلوين و روى انه لما قرأها النبي عليه السلام على أصحابه استبشروا و بكى العباس فقال عليه السلام

" **ما يبكيك يا عم** " قال نعيت إليك نفسك أي ألقى إليك خبر موت نفسك و النعي ألقاء خبر الموت قال عليه السلام " **إنها لكما تقول** " فلم ير عليه السلام بعد ذلك ضاحكا مستبشرا و قيل أن ابن عباس رضي الله عنهما هو الذي قال ذلك فقال عليه السلام "**لقد أوتي هذا الغلام علما و كثيرا** " و لذلك كان عمر يدنيه ويأذن له مع اهل بدر ولعل ذلك للدلالة على تمام امر الدعوة وتكامل امر الدين كقوله تعالى اليوم اكملت لكم دينكم والكمال دليل الزوال كما قيل.

توقع زوالا إذا قيل تم. أو لأن الأمر بالاستغفار تنبيه على قرب الأجل كأنه قال قرب الوقت و دنا الرحيل فتأهب للأمر و نبه به على أن العاقل إذا قرب أجله ينبغي أن يستكثر من التوبة و روى أنها لما نزلت خطب رسول الله صلى الله عليه و سلم فقال "**إن عبدا خيره الله بين الدنيا و بين لقائه فاختار لقاء الله** " فعلم أبو بكر رضي الله

عنه فقال فديناك بأنفسنا و أموالنا و آبائنا و أولادنا و عنه عليه السلام انه دعا فاطمة رضي الله عنها فقال **"يا بنتاه انه نعيت على نفسي"** يعنى خبر وفات من دهند

نامه رسيد ازان جهان بهر مراجعت برم عزم رجوع ميكنم رخت بجرخ ميبرم

فبكت فقال **"لا تبكى فإنك أول أهلى لحوقا بي"** فضحكت و عن ابن مسعود أن هذه السورة تسمى سورة التوديع لما فيها من الدلالة على توديع الدنيا قالعلي رضي الله عنه لما نزلت هذه السورة مرض رسول الله عليه السم فخرج إلى الناس فخطبهم و ودعهم ثم دخل المنزل فتوفى بعد أيام قال الحسن رحمه الله أعلم انه قد اقترب اجله فأمر بالتسبيح و التوبة ليختم له بالعمل الصالح و فيه تنبيه لكل عاقل {انه كان توابا} مبالغا في قبول توبتهم منذ خلق المكلفين فليكن كل تائب مستغفر متوقعا للقبول و ذلك أن قبول التوبة من الصفات الإضافية و لا منازعة في حدوثها فاندفع ما يرد أن المفهوم من الآية انه تعالى تواب في الماضي و كونه تواباي الماضي كيف يكون علة للاستغفار في الحال والمستقبل و في اختيار أنه كان توابا على غفار مع أنه الذي يستدعيه قوله و استغفر حتى قيل وتب مضمر بعده و إلا لقال غفارا تنبيه على أن الاستغفار أنما ينفع إذا كان مع التوبة و الندم و العزم على عدم العود ثم أن من اضمر و تب يحتمل انه جعل الآية من الاحتباك حيث دل بالأمر بالاستغفار علت التعليل بأنه كان غفرا و بالتعليل بأنه كان توابا على الأمر بالتوبة أي استغفره و تب.

ذكر البرهان الرشيدي أن صفات الله تعالى التي على صيغة المبالغة كلها مجاز لأنها موضوعة للمبالغة و لا مبالغة فيها لان المبالغة أن يثبت للشيء أكبر أكثر مما له و صفاته تعالى منزهة عن ذلك و استحسنه الشيخ تقي الدين السبكي رحمه الله و قال

الزركشي في البرهان التحقيق أن صيغة المبالغة قسمان أحدهما ما تحصل المبالغة فيه بحسب زيادة الفعل و الثاني بحسب تعدد المفعولات و لا شك أن تعددها لا يوجب للفعل زيادة إذ الفعل الواحد قد يقع على جماعة متعددين و على هذا القسم تنزل صفاته و يرفع الإشكال و لهذا قال بعضهم في حكيم معنى المبالغة فيه تكرار حكمه بالنسبة إلى الشرائع و قال في الكشاف المبالغة في التواب للدلالة على أكثرة من يتوب عليه أو لأنه بليغ في قبول التوبة بحيث يتزل صاحبها متزلة من لم يذنب قط لسعة كرمه.